اَلْـمِعْطَفُ الْأَزْرَق / عَلي الْـمِزْعِل

عَلَى الرَّصِيفِ الْمُقابِلِ لِلْمَشْفَى ثَمَّةَ رَجُلٌ عَجُوزٌ في حالَةِ تَرَقُّبٍ واسْتِنْفارٍ دائِمَيْنِ، تَحْمِلُهُ خُطُواتُـهُ الْمُتَوَتِّرَةُ نَحْوَ الْيَمينِ تارَةً وَنَحْوَ الشِّمالِ تارَةً أُخْرَى ؛ وَفي أَحْيانٍ كَثيرَةٍ يَنْدَفِعُ نَحْوَ بَوّابَةِ الْمَشْفَى مُحاوِلاً الدُّخُولَ، فَيَدْفَعُهُ الْجُنودُ خارِجاً، ثُمَّ لايَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ إِلى مَكانِـهِ على الرّصيفِ الْمُقابِلِ تَماماً...

عَيْنَاهُ عَالِقَتانِ بِنَافِذَةٍ في الطَّابِقِ الثَّاني لِلْمَشْفَى...

الْمِصْبَاحُ الْكَهْرَبائِيُّ الْمُعَلَّقُ في سَقْفِها يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ شَدِيدٍ، وَمَعَهُ تَتَحَرَّكُ عَيْنا الرَّجُلِ العَجوزِ الَّذي يَحْمِلُ بِيَمينِهِ مِعْطَفاً صَغيراً أَزْرَقَ اللَّوْنِ لَهُ يَاقَةٌ فَرْوِيَّـةٌ مُهْتَرِئَةٌ، وَأَكْمامٌ مُخَطَّطَةٌ بِقِطْعَةٍ قُماشِيَّـةٍ فَقَدَتْ أَلْوانَهَا بِفِعْلِ الزَّمَنِ.. يَنْظُرُ إِلَيْهِ، يُمْعِنُ النَّظَرَ في قُـبَّعَـتِـهِ الْمُنَدَّاةِ بِالدِّماءِ ، يُقَلِّبُ ثَناياهُ الدَّاخِلِيَّةَ، ثُمَّ لايَلْبَثُ أَنْ يَضَعَهُ تَحْتَ إِبْطِهِ وَيَنْدَفِعُ مُجَدَّداً نَحْوَ بَوَّابَةِ الْـمَشْفَى.. هُناك يَدْفَعُهُ جُنْدِيٌّ مُسَلَّحٌ:

– أَرْجُوك.. لَحْظَةً فَقَطْ ؛ أُرِيدُ أَنْ أَراهُ، إِنَّهُ حَفِيدِي الْوَحِيدُ.

– اخْرُجْ مِنْ هُنا.. لامَجالَ عَلَى الإِطْلاقِ.

– أَرْجُوكَ.. لَحْظَةً فَقَطْ...

فُوَّهَةُ الْبُنْدُقِيَّةِ تَتَجَّهُ نَحْوَ صَدْرِهِ، وَحِذاءٌ ثَقيلٌ يَرْتَفِعُ... يَتَماسَكُ، يُغالِبُ السُّقُوطَ، أَصابِعُهُ الْـهَرِمَةُ تَلْتَفُّ بِقُوَّةٍ حَوْلَ قُبَّعَةِ الْمِعْطَفِ...

يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ يَلُفُّ جَسَدَهُ الْهَرِمَ، يُقْعِي عَلَى بَلاطِ الرَّصِيفِ، يَنْظُرُ إِلى قُبَّعَةِ الْمِعْطَفِ يَتَمَلَّى ثَنَايَاهُ جَيِّداً ثُمَّ يَضُمُّـهُ إِلى صَدْرِه...

يُتابِعُ النَّظَرَ... بَوَّابَةُ الْـمَشْفَى مُغْلَقَةٌ، وَمُسَلَّحُونَ يَتَناوَبُونَ الْـحِراسَةَ.. وَبَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْأُخْرَى تَنْهَبُ صَمْتَ الْـمَكانِ سَيَّارَاتُ الْإِسْعافِ الَّتي تَتَوَقَّفُ سَرِيعاً ثُمَّ لا تَلْبَثُ أَنْ تُغادِرَ الْـمَكانَ بَعْدَ أَنْ تُفْرِغَ حُمُولَـتَها مِنَ الأَجْسادِ الآدَمِيَّـةِ الْـمُهَشَّمَةِ، وَمَعَ كُلِّ سَيَّارَةٍ قادِمَةٍ، يَزْدادُ عَدَدُ الْوَاقِفينَ إِلى جِوارِهِ عَلَى الرَّصِيفِ ،

إِلّا أَنّه لاَيَأْبَهُ لِكُلِّ ذَلِكَ؛ كُلُّ مَا يَهُمُّهُ أَنْ يَعْرِفَ مَا يَجْرِي في الدَّاخِلِ، ولِحَفيدِهِ تَـحْدِيداً..

يا إِلَهِي: حَفيدِي فِي الصَّباحِ ذَهَبَ بَاكِراً إِلى المَدْرَسَةِ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ في حَقِيـبَتِهِ لِفَافَةً مِنَ الزَّعْتَرِ وَبَعْضَ قِطَعِ الْحَلْوَى، وَعِنْدَ الظَّهيرَةِ عَادَ في الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ تَـمَاماً..

داسَ عَتَبَةَ الْبَيْتِ.. نَظَرَ خَلْفَهُ، كَانَ الْـجُنودُ يَرْكُضُونَ في اتِّجاهاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ويُطْلِقونَ النَّار، أَحَدُهُمْ صَوَّبَ بُنْدُقِـيَّـتَهُ نَحْوَهُ، فَأَصابَهُ في رَأْسِهِ، خَرَّ الطِّفْلُ صَرِيعاً، تَخَبَّطَ بِدَمِهِ كَعُصْفورٍ، وَحِينَ حَمَلَهُ بَعْضُ الشُّبَّانِ كَان يَـئِـنُّ.... يَصْرُخُ.... يُنادِي، قَالَ كَلِماتٍ ، لَمْ أَفْهَمْهَا...

حَقيبَتُه فَقَطْ ظَلَّتْ عَلَى الْأَرْضِ، وَمِعْطَـفُـهُ أَيْضاً خَلَعَهُ الشُّبَّانُ وَأَلْقَوْا بِـهِ عَلَى عَتَبَةِ الْبَيْتِ، وَهَا قَدْ شَارَفَ اللَّيْلُ عَلَى الرَّحِيلِ، وَبَدَأَتْ تَلُوحُ في الأُفُقِ خُيُوطٌ حَمْـرَاءُ قَانِيَةٌ، وَلَمْ أَعْرِفْ عَنْه شَيْئاً..

يَتَنَاهَضُ قَلِيلاً، يَرْفَعُ حَاجِبَيْهِ الْمُتَهَدِّلَيْنِ، لَقَدْ سَكَنَتِ الْـحَرَكَةُ في الغُرْفَةِ الْمُقابِلَةِ... الظِّلالُ الآدَمِيَّـةُ لَمْ تَعُدْ مَوْجُودَةً، الْمِصْبَاحُ الْكَهْرَبائِيُّ فَقَطْ يَتَحَرَّكُ في سَقْفِ الْغُرْفَةِ.

لا أَدْرِي، قَدْ لاَ يَـكُونُ هُناكَ تَحْدِيداً، وَلَكِنَّ إِحْسَاسِي يُؤَكِّدُ ذَلِكَ ، ثَمَّةَ رَائِحَةٌ تَنْطَلِقُ مِنْ هُنَاك، هِي ذَاتُهَا رَائِحَةُ الْـمِعْطَفِ الَّذي بَيْنَ يَدَيَّ ...

يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّ كَفّاً صَغِيرةً تُـلَوِّحُ لَهُ خَلْفَ زُجَاجِ النَّافِذَةِ... يَنْدَفِعُ نَحْوَ بَوَّابَةِ الْمَشْفَى: أَرجُوكَ يَا سَيِّدِي... دَعْني أَدْخُلْ...أَلَا تَمْلِكُ قَلْباً!؟

وَقَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ الْـحِوَارُ، كَانَ عَدَدٌ مِنَ الْمُسَلَّحِينَ يَحْمِلونَ جُـثَّـةً صَغِيرةً عَلَى نَقَّالَةٍ بَيْضاءَ وَيَهْبِطُونَ الدَّرَجَ.. نَحْوَ الْبَوَّابَـةِ الرَّئِيسَةِ.... ارْتَكَزَتْ عَيْناهُ فَوْقَ جُثَّةٍ هَامِدَةٍ، تَتَمَاوَجُ قَلِيلاً مَعَ حَرَكَةِ أَقْدَامِ الْـجُنودِ... حَدَّقَ في وُجُوهِهِمْ مَلِيّاً... تَجَمَّدَ الدَّمْعُ في عَيْنَيْهِ ثُمَّ تَراخَتْ يَدَاهُ، وَعَلى الأَرْضِ سَقَطَ الْمِعْطَفُ الأَزْرَقُ الصَّغِيرُ، وَمِنْ جُيُوبِهِ تَدَحْرَجَتْ بَعْضُ قِطَعِ الْحَلْوَى وَبَقَايا لِفافَةِ الزَّعْتَرِ... بَيْنَما كانَتْ مآذِنُ الْقُدْسِ تَغْتَسِلُ بِحَبَّاتِ الْـمَطَرِ الَّذي حَمَلَتْهُ خُيُوطُ الصَّباحِ.